التدليلية

في التفسير الكبير للفخر الرازي

د/عشراتي سليمان
معهد اللغة والأدب العربي -جامعة السانيا -وهران- الجزائر

الأثر كون معنوي مفتوح :

مما لاشك فيه أن الاثار الانسانية المثبتة أو المخلدة، سواء في حقل الفن أو الفكر أو الأدب، انما تمتلك دينامية تجددية لايفتأ العقل التأملي عبر تعاقب الأزمنة يلمسها فيها بفضل الطابع الإيعزي المثير الذي يميزها، والذي يشكل أساس بقائها، ومناط ديمومتها. ذلك لأن كل متن أو صيغة جمالية أو روحية أو عقلية، في أي شكل وردت، وعلى أي صورة تبدت، لابد وأن تكون لها مساحة من الإيحاء تغري بالاستكشاف ووضع الافتراضات التأويلية..

إذ هي تغدو مظهرا من مظاهر هذا الكون الفسيح، المتنوع المعالم، الذي لايمكن للعقل الانساني إلا أن يفاعل مضمراته ومجاليه تدبرا وتأملا..

على أن مبدأ التدبر سيضحى له شأن آخر حين يتعلق الأمر بكتاب الله، إذ الصلة ستخرج عندئذ من نطاقها الإنسي وما يحكمها من عوامل النفس والإجتماع ومن شروط الزمان والمكان، لتغدو صلة علوية لامناص معها من استكناه مقررات الخطاب السماوي في ضوء مدارك الروح والعقل معا..

لقد تنزل كتاب الله على الأمة الوسيطة فتشربت روحه وخرجت تنشر الفحوى القرآني في العالمين، وتؤسس وفق تعاليمه كينونتها الحضارية والمدنية، وقد تبدى حرص الأمة على أن تظل سائرة على النهج الإلهي في تلك العناية الفكرية التي أولاها أهل التنوير من أبنائها للنص القرآني، نسخا وحفظا ودراسة وتأويلا، وهو ما أغل هذا الكم الهائل من المباحث و الدراسات التي تمحورت حول النص القرآني والتي كان علم التفسير من أهم

ركائزها..

ظل التفسير يمثل المبحث المعرفي الدقيق الذي ينشط فيه عقل المؤمن الباحث عن الحقيقة الروحية والمعنوية المضمرة في ايماءات الخطاب السماوي، وظل الإمتثال للمطلب الشرعي على النحو السديد يحمل الإنسان المسلم على استكناه المقول القرآني توخيا لأحداث المطابقة بين المقرر السماوي والسلوك البشري الأيماني كما يفترضه ذلك المقرر..

إنها جدلية التسامي بالوعي الديني وإرادة تحقيق مستوى المثالية الذي تهيئه حال التوافق بين مرامي الخطاب القرآني وبين وعي المسلم الملتزم بالكنه الشرعي وبالمرجوعية النصية للمنزول.

ولقد ظل المسلمون يغالبون أحوال الإنفكاك عن نصهم القرآني ويرأبون أوضاع التفكك المادي والأدبي التي طفقت تتداعى إليهم في سيرتهم التاريخية والحضارية، بتعزيز صلتهم بالقرآن شرحا وتفسيرا.. وظلت مقارباتهم التأويلية لكتابهم تترى على مدى الأجيال، إما بوازغ تثبيتي، وصلا للروح المسلمة بكتابها، أو بتجديد الأفق المعنوي من حول المسلمين تبديدا لشيء من أكام الظلمة والأنحباس التي اكتنفت المدنية وأعاقت مسيرتها منذ أعصر..

فربط الأواصر الإدراكية بين الأمة وكتابها، نشدانا لحال من الوعي بروحية الدين مثالية، ظل غاية المساعي التأويلية الاسلامية عامة، تستوي في ذلك المقاربات التي استندت على الأثر، وأحالت عليه حصرا في فهمها للنص القرآني، أو تلك التي سعت الى أن تخرج المعنى القرآني من خلال الاجتهاد العقلي، والتسديد التدبري..

ماهية التفسيـــر

تستجيب العملية التوصيلية التي يحققها الفعل التفسيري، لحاجة الإستيعاب والفهم التي تقوم في نفس المتلقي/الجمهور، بسبب عائق ادراكي يعيق صلة التفاعل أو يحد منها بين المتلقي والنص.. فالتفسير بهذه الحال هو ربط صلة التعامل، أو تقويتها،

وتسديدها، بين الأثر المنزول وبين المتعامل المسلم وغير المسلم، اجلاء للفحوى السماوي، وبيانا لمقرراته..

فزيادة على القيمة الدينية التي يتميز بها الجهد التفسيري -باعتباره عملا تبليغا يدخل في صميم واجبات المسلم المؤهل لمهمة الأداء -توجد القيمة التربوية أو البيداغوجية التي ينبني عليها الخطاب التفسيري، إذ يهدف الى قراءة المدلول وتقريبه من الأذهان، تمكينا لها من التفاعل معه، والأخذ به.. من *هنا كان التفسير قراءة توصيلية بامتياز*.. ولما كانت القراءة هي السبر المتجدد للمكنون النصي، فإن التفسير هو بلا شك الحقل التمرسي الذي تتماهى فيه المقررات المنزلة وتتكيف مع مستجدات الحياة ومبتدعات الفكر، إذ هي تتماس بالواقع وتتقوم فيه بالمعيار السماوي الشرعي..

من هنا توطدت الصلة بين حقلي التفسير والفقه على اعتبار أن تخريج الدلالة يتضمن -ضررة- الإقرار بالحكم الشرعي وبالرؤية الدينية في الموضوع المفسر.. يتضح من هذا أن التفسير نشاط افصاحي توسيعي تحقق فيه الدلالة مزيدا من الإستيعاب للمعاني التي كان الوجه الظاهر للخطاب يحتجبها أو يغمرها.. ذلك لأن التخريج التفسيري هو إجراء تقني قائم على توجيه الدلالة وتسديد الحدس الذي تلقط به تلك الدلالة.. فاستنطاق النص حدث تثميري لامجال لتحكيم الأهواء فيه، إذ له حرمة عليا، كلية، تتأبى عن الإحتياز الإعتسافي الإغتصابي، ولا سبيل لمن يباشر تفعيله إلا التحلي بالموضوعية، وبالحياد التحصيفي، مخافة الجور عن مقاصد الشرع، إذا ما لابست التخريج منازع الغرضية والانتفاعية المحدودة، القائمة على أساس أناني، أو فئوي، أو نحلي.. تلك المنازع التي تركت بصماتها في الحقل التفسيري من خلال جدل أهل النحل. فلا بدع والحال هذه أن يغدو الحقل التفسيري في بعض تخريجاته- موئلا للمجادلة المذهبية، وللتفاوض التأويلي، بل وحتى للصراع بواسطة توجيه اللغة، وتثمير الدلالة من موقع الذاتية والمذهبية..

الخطاب والمرجوحية الدلالية :

يكتسي الموقف الخطابي الحي والمباشر أهمية أساسية في تحديد الفحوى، وتسديد الدلالة، ذلك لأن القائل يضفي على مقولة من القيم الإفصاحية ما يجعل الرسالة تنتهي الى متقبلها وهي أقدر على تأدية مهمتها التوصيلية.. فالمقام التوصيلي مرتكز مرجعي معتبر في إجلاء المقول وبيان مراميه وتأصيل رجاحته الخطابية، لذا كانت الضرورة الإدراكية، وفي غياب أو عدم توفر عناصر المقامية وفي مقدمتها القائل، تستعيض عن المقام وملابسته، بالتفسير.. إذ يضطلع المفسر بدور المؤدي (الأصول) الذي يوصل الفحوى (المفسَّر) الى المتلقي/الجمهور، وبخطاب مطابق في جوهره لذلك المقول الأصل.. بانيا وجاهته الأدائية على عدالة تفسيرية مبرأة من الهوى..

النصية التخريجية القرآنية :

لقد ظل وازع الأخذ بالحقيقة القرآنية، والإمتثال للمقرر الشرعي، يحدو المسلمين، سواء في عهد الرسول أو في ما تلاه من أعصر، الى معرفة معنى النص المنزل على نحو لاتفوتهم معه جزئياته ولا كلياته. ولقد أثر عنه (ص) أنه كان يراجع في مسائل تنزيلية تمس المعنى القرآني دلالة وحكما.. كما روي أن عمر كان يتساءل عن معنى *الأب*..وباختلاط العناصر والثقافات في كنف مدنية الاسلام، جاءت التأويلية القرآنية لتحقق الصون للنص السماوي من تقولات القاصرين عن فهم البيان العربي، ومن انتهاكات أصحاب التجسيم والمشبهة ممن كانت روح الديانات الحسية (الإيقون-النار-التمثال) تحكمهم، فضلا عما كانت تصرح به نزاعات الإلحاد والزندقة من اعتراضات تطعن بها على الخطاب القرآني.. من هنا يتبدى لنا أن ظهور المبحث التفسيري إنما كانت بواعثه :

- **بيداغوجية** تعليمية، بطرح المضمون القرآني طرحا ادراكيا قريبا من أفهام المتلقين.
- **تسديدية**، من خلال إصلاح الرؤى التي كانت الثقافات الأخرى تسقطها عليه فهما وتحريجا..
- **تغليبية**، وهذا بالتصدي الفكري والديني الى مطاعن المتقولة المكذبين..

- **استيعابية** وهذا بدمج المؤثل من جديد المعارف والمراسات العلمية والحياتية في دائرة شمولية وضمن نطاق روحي استقبالي مفتوح على تقبل الجديد المرشد، دون أن يستنفذ ذلك التفاعل مع الطوارئ، طاقة المرجوحية المؤصلة في خطابيته(1)

الرازي والروافد التفسيرية المرجعية :

لاشك أن تأثر الرازي بالمصادر التفسيرية السابقة لعصره كان كبيرا ومتفاوت المستويات، وهذا لا يظهر فقط في الناحية الإحالية، الإسترفادية، من خلال اعتماده كثيرا من المادة التأويلية التي حملتها إليه تلك المصادر، والاقتباس منها، ولكن ايضا من ناحية التوجه الفكري والمنهجي الذي سار فيه تفسيره.

وغير خاف الدلالة التي يشي بها العنوان ذاته لهذا التفسير (مفاتيح الغيب). فهو يتضمن الاقرار بموسوعته (المفاتيح جمع مفتاح)، وبعمليته الاستبصارية، وفرق بين أن يقول مفاتيح المعارف مثلا ومفاتيح الغيب، لما لمدلول الغيب من افصاح ترسيخي للمنحى الاستطلاعي الذي توخاه هذا العمل، بعكس مفهوم المعارف الذي قد يشمل المبادهات الخام غير المحصة عقليا، او التي هي في متناول المدارك العامة رواجا وذيوعا..

على ان لفظ (المفاتيح) يوعز ايضا بالصبغة المنهجية التي شاء أن يتميز بها هذا التفسير، بحيث تركزت أهمية المقاربة في الكيفية الاستكناهية التي تخرج بها المدلول القرآني، كيفية حشدت جملة المعارف التي توفرت لعصرها من أجل استقراء الفحوى، اعتباراً للامحدودية الخطاب القرآني ذي السعة التي لاتستوعب كليتها عقلية الانسان المشروطة بمحددات الثقافة والزمان والمكان..

المنطق الفكري لمفاتيح الغيب :

تتركز المباشرة التفسيرية عند الرازي على رؤية فكرية تجعل من فعل التدبر والتفكير شرطا وجوديا تسمو به إنسانية الانسان وتستقيم.

وإذا كان الدين إنما جاء ليعطي الانسان امكانية الاهتداء والرشاد بما يحصف

من عقله، وينور من بصيرته، فقد أضحى التفعيل العقلي والتسديد النظري والفكري من أهم المواقف التي تدرج الانسان في الواقعة الدينية، وتضفي عليه الصبغة الروحية، إذ الدين الحق كما يقول الرازي، إنما هو دين النظر :

"الدين الحق لاسبيل اليه إلا بالنظر، والنظر لامعنى له إلا ترتيب المقدمات لتوصل بها الى نتائج"(2).

لقد كان النظر وإحالة التفكير من الأحوال التي لابست الأنبياء والرسل ورافقت خطاهم نحو بلوغ الهداية واحتياز الاصطفاء.. وغدت بعثاتهم وقائع تحفز في الإنسان قابلية الاستهداء والاسترشاد.. وهو ما أشار اليه الرازي، اذ يقول : الأنبياء بأسرهم ما جاؤوا إلا بالأمر بالنظر والاستدلال".

لقد ظلت رؤية الرازي تصدر عن عقلانية نابعة من ثقافة دينية أسسها المعرفية المبدئية نقلية عقلية.. وهو ما جعل تخريجه للآيات القرآنية يتبع طريق الإحالة والاستضاءة بأقوال السلف من الصحابة والفقهاء والمفسرين، قبل أن يخلص الى تقرير رأيه حين يتبدى له وجه شخصي في مسألة ما.

على أن استيعابه الموسوعي للثقافة الإسلامية، بمرتكزاتها اللغوية والفقهية والكلامية قد أعطاه هذا التبحر الفكري الذي بدت معه المقاربة التأويلية على حظ من الحياد والموضوعية، قليلا ما تجنح نحو السجال التحريبي..

فقد رأيناه يحاور المذاهب الكلامية والفقهية -مرجئة- شيعة.. من منطلق التحاجج العقلي غير التهاتري، ولا يغض من هذه الحيادية احتداده أحيانا على بعض المتأولين أمثال أبي بكر الرازي الذي رأيناه ينتقده في مواطن عدة، ويجهله.. ولعله كان بذلك الإنتقاد ينعر إمامه الشافعي الذي كان هدفا لمراجعات أبي بكر الرازي واعتراضاته..

لقد اتخذت المهمة التفسيرية لدى الرازي وجها بنائيا، تباينيا، على اعتبار أن المتأول للخطاب القرآني إنما هو قارئ لبنية عقيدية وروحية استكملت خصوصيتها الخطابية، وتنزلت من الملتقى منزلة الاستواء الأدبي والمعنوي، بحيث يمكن لمن امتلك

السليقة اللغوية والعقل الحصيف أن يستكنه الفحوى الذي تحمله تلك البنية..

من هنا رأينا الرازي يؤكد الأهمية التي يكتسبها اكتمال العدة الاجرائية لدى المفسر، فهو يشترط للمفسر التبحر في علوم الأصول واللغة والنحو.. باعتبارها المواد التقنية والتأصلية اللازمة التي يباشر بها المتأول فهم النص القرآني.. هذا النص الذي حوى معجما لغويا متميزا غنيا باحالاته اللهجية العربية المختلفة، والذي اصطنع نظمية توجيهية وتشريعية واعلامية خرجت عن السنن الشعري والخطابي *باغراضهما المراسيمية المطردة*..الأمر الذي تطلب من المتأول أن يكون مترسما بقيم ومقومات البيان القرآني حتى يتسنى له الولوج الى المعنى، وفقاهة المرمى الخطابي.. من هنا ألفينا الرازي يترصد الفحوى انطلاقا من الأصل اللغوي، ومن السياق الخطابي، ومما تفصح عنه الألفاظ المنظومة من معنى ينسجم مع الاطار الشرعي الذي تقوم عليه العقيدة القرآنية في توجهاتها الكلية. فالرازي يستقرئ الدلالة من زاوية بيانية خطابية باعتماد دلالة اللفظ وتواضعاته المتعددة، مسددا المعنى في ضوء روح الشرع أو عرف الشريعة، كما يسميها، محققا شرط الانسجام بين المقررات القرآنية، عبر تعدد سياقاتها، جاعلا من مبحث التفسير حقلا بنائيا يستجلى فيه القصد القرآني على صورة أقرب الى المدارك العامة..

لقد رافقه حس منهجي -هو سمة العقليات الموسوعية عادة- طفق يحيل به على تخريجات ارتضاها لمسائل تفسيرية ونص عليها في ما كان قرر من أحكام فقهية خارج مبحث التفسير.. فمعارفه كانت تتضافر وتتداعى في بيان القصد القرآني، وكانت الإحالة اجراء اجتزائيا، يحول دون عملية الاستطراد.. فهو وإن اغترف كثيرا من معين الفقه والتشريع في تخريج الآي، وخاصة منها المتعلقة بالمعاملات، إلا أنه كان يتدارك نفسه ويوجه المتلقي الى مباحثه الفقهية، مقررا أنه استوفى الحديث عن هذه المسألة أو تلك، هناك.. كما أنه كان يحيل القارئ أيضا على المواطن التي يكون قد أفاض فيها بالحديث عن مسألة ما داخل التفسير، أو كان يرجئ أحيانا التفصيل في مسألة ما الى موضع مناسب..

وطبيعي أن تكون وراء هذا التصرف المنهجي روح استقرائية شاملة وواعية بالمضمون القرآني في كليته، وهو ما يسر عليه ارسال بعض التقريرات في صورة أحكام ثابتة، ومطردة، كما في قوله مثلا :

"أعلم أن عادة الله في القرآن مطردة بأنه تعالى مهما ذكر وعيدا ذكر بعده وعدا"(3).

على أن استعراضه للمأثور من الأقوال والتخريجات التفسيرية إنما كان يقوم على وازع تمحيصي، تقويمي، من خلال تعضيد الرؤى التي كانت تنسجم مع رؤيته العقلية، وترجيحها على غيرها، وهذا يتفق مع منهج قراءته القائم على مبدأ تحصيف المأثور، أو تأكيد النقل بالعقل كما يقول(4).

وتستثمر المقاربة التأويلية لديه أحيانا المعطى الظرفي أو الموقفي، فتستدعي المناسبة وتستقرأ وقائعها على نحو تجريحي، يتخرج به الخطاب تخريجا جدليا تدليلا..

وفضلا عن استعانته الموضوعية بجملة المعارف والعلوم التي توفرت لعصره -كما أسلفنا- فقد اعتمد على ما كانت تزوده به التجربة الشخصية أو المسلمات المطردة من خبرة، وهو ما كان يسميه *جاري العادة*..لذا نجده يستقرئ المسائل بروح عالم الاجتماع، والانتروبولوجي، وعالم النفس والمؤرخ، والفلكي، والصوفي.. فهو قد استطرد مثلا في استعراض علميته بالكشف عن النظام الكوني وما يحوي من أقطار وأفلاك، استرسالا مع تفسيره لبعض الآيات القرآنية.. على أننا نجده احيانا يقف بهذه الروح العملية موقف الناقض للتقريرات التي لاتقوم على صواب، خصوصا في المسائل المتعلقة بالتاريخ، فقد دأب على مراجعة التخريجات التي تأولت بعض وقائع النص القرآني بالظن ولم تستحضر فيها الحقيقة التاريخية، مثل حديث بعضهم عن بيت المقدس وما عراها من أطوار، حيث عدل الرازي ذلك التأويل من خلال وضع الحدث ضمن سياقه التاريخي..

لقد نوه الرازي بالعقل المتأمل، واعتبر التأمل أحد طرق استلهام الحكمة التي

يترشد بها الانسان ويهتدي الى الايمان الحق، إذ سيفضي به التملي في اثار الخالق، الى اكتشاف نظم الكون، ودقة دورانه، وتنوع مرافقه المرئية والخفية، وبذلك تتقوى درجة التيقن القلبي لديه "فكل من كان إطلاعه على آثار حكمة الله تعالى في تدبير العالم الأعلى، وتدبير العالم الأسفل أكثر، كان اطلاعه على أسماء الله تعالى ووقوفه على الصفات الموجبة للمدح والتعظيم أكثر(5).

ويقول أيضا : إن كل من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته.."(6)

من هنا ألفيناه يقرض أهل الكلام باعتبارهم منافحين عن العقيدة، أداتهم في ذلك العقل ووسيلتهم التدليل البرهاني، من أجل ذلك راح يقرر أن الاشتغال بهذا الفن البرهاني (علم الكلام) لا يضير المسلم ما دامت الغاية إيمانية، ولن يقدح في موضوعية علم الكلام طرؤوه على المعارف الاسلامية وجدة اصطلاحاته عليهم، فعدم استخدام الصحابة اصطلاحات المتكلمين لايطعن في الكلام، تماما كما هو الشان مع الفقه واصطلاحاته، إذ هو أيضا علم مستحدث لم يمارسه الصحابة، لكنه توطن المنظومة المعرفية الاسلامية، لما يقدمه من خدمة تنويرية وارشادية للمسلمين..(7)

لقد ميز الرازي بين ضربين من الجدل، جدل نفعي ابتزازي، مقاصده الكسب الدنيوي والظهور الاجتماعي، وبين جدل عقلي مراميه ترشد الناس وتركيز الحق والايمان في قلوبهم.. فالرازي إنما يذم الجدل متى كان القصد منه "تقرير الباطل وطلب المال والجاه"(8)

لقد رأيناه اذ بتناول بعض آي القرآن بما يكبر من شأن المؤمنين من أهل الكلام..اذ فسر الله عز وجل : "وما يذكر الا أولوا الألباب" قائلا : وهذه الآية دالة على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ويتوسلون بها الى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله..(10).

وسنجده في موقف آخر يقرر في تأويل بعض الآيات القرآنية قوله : "دلت الآية على أن أعلى مراتب الصديقين التفكر في دلائل الذات والصفات"(11).

والتفسير بما هو قراءة في بنية البيان القرآني من خلال تسديد عقلي لمعارف العصر، وعلوم المرحلة، وتوظيفها في فهم الفحوى، غدا موقفا جداليا تترسخ فيه العقيدة بما يمنحها عقل المتأول من وجاهة وإثبات، من أجل ذلك وجدنا الرازي يعظم من شأن المفسرين الذين ينيطون بهمتهم أمر إجلاء المقاصد القرآنية، واستكشاف المكنوز من تأويلاتها..

لقد آمن الرازي بمبدأ التجاوز وبمشروعيته في حقل التأويل، وفسح المجال عريضا حيال أهل الجدارة من المتأولين، بحكم أن المعرفة لاتحوزها عقلية واحدة، وأن جهود السابق لاينبغي أن تصادر تسديدات اللاحق "فقد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذ ذكروا وجها في تفسير الآية فذاك لايمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، ولولا جواز ذلك.. لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في تفسير كلام الله مردودة"(12).

ويقول في موضع آخر : "بينا في أصول الفقه أن استنباط تأويل جديد في الآية لم يذكره المتقدمون جائزٌ.."(13)

إنه موقف يعلى من مسؤولية الأجيال في مفاعلة كتابها بما يعزز عقيدتها.. موقف يعتد بالعقل، ويرفض أن يحصر انجازاته في عصر أوجيل، إلا ما كان من عصر الصحابة وأهل التأسيس، فآراء أولئك الرعيل ينبغي أن تظل منطلقات مرجعية يتهدى بها الخلف في توسعاته الفكرية والعقيدية لئلا يزيغ.

لقد نظر الرازي الى التأويل نظرة مجدد، ليقينه بأم منابيع الخطاب القرآني لاتغيض، وليس مستغربا أن يدأب على تأكيد الطابع الإيعازي الذي يتميز به النص القرآني..

لقد قرر في مطلع تفسيره أنه على اقتدار لأن يولد من سورة الفاتحة مادة تأويلية جسيمة، وهذا الموقف منه وإن نم عن اعتداد معرفي إلا أنه يعبر عن حقيقة الدفق النفسي الذي كان يستغرقه وهو يباشر القراءة التأويلية.. ولا غرو في ذلك، فالتفاعل مع النص القرآني من منطلق معرفي وروحي لابد وأن يلهم المتأول المؤمن غزير

الاستبصارات..

لقد جعل الرازي من الاجتهاد بديلا لتجاوز الظني والتقليدي، ذاهبا في هذا مذهب الشافعي الذي لايجوز تقليد المجتهد متى توفرت في المتأول الجدارة الاجتهادية والمستندة على شرط صحة العقيدة والعقل، فضلا عن مبدأ الاستفاضة المعرفية والفكرية.. ونجد في هذا الصدد أن الرازي قارب مبدأ الاجتهاد مقاربة تشريعية الزامية بحيث قرر : *"أن المكلف إذا كان قادرا على تحصيل العلم لايجوز له الإكتفاء بالظن"* (14).

وأن الأخذ بالظن الأقوى أولى من القول بالظن الأضعف"(15) وأن "*ترجيح التقليد على الاستدلال خطأ*" (16).

ذلك لأن "*تقليد المتيقن راجح على تقليد الظان بالاجتهاد، وتقليد المجتهد الظان أولى من تقليد من قلد غيره*" (17).

لقد جزم الرازي في غيرما موطن ببطلان أمر التقليد في ما يخص المسائل العقلية، من ذلك مثلا ما صرح به عند تأويله لقوله تعالى : "الذين يذكرون الله قياما وقعودا.."

فقد علق قائلا : دلت الاية على أن أعلى مراتب الصديقين، التفكير في دلائل الذات والصفات، *وأن التقليد أمر باطل لاعبرة به، ولا إلتفات إليه*" (18).

على أن الرازي كان يقطع بأن هناك من المسائل الغيبية ما يظل مناط التأويل الظني فقط، لذا نراه يشير بلا جدوى تأويلها.. إذ كل تقريب فكري لها إنما يدخل في باب الرجم بالغيب ليس إلا(19)..

وذات الموقف تقريبا يتخذه من مسألة التفكير في الخالق، إذ وجهته هي أن يكون التفكير في المخلوق وصولا الى الوثوق بكينونة الخالق لا العكس..

فما تقوم عليه مسألة التفكير في الخالق من بعد ميتافيزيقي إنما تجعل الذهن البسيط لايخرج منها بطائل..

يقول الرازي : *إن الاستدلال بالخلق على الخالق لايمكن وقوعه على نعت المماثلة،*

إنما يمكن وقوعه على نعت المخالفة، فإذن نستدل بحدوث هذه المحسوسات على قدم خالقها، وبكميتها وكيفيتها وشكلها على براءة خالقها عن الكيفية والشكل، وقوله (ص) من عرف نفسه عرف ربه معناه : من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالامكان عرف ربه بالوجوب، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء، فكان التفكير في الخلق ممكنا من هذا الوجه، أما التفكير في الخالق فهو غير ممكن البتة، فإذن لايتصور حقيقته إلا بالاسلوب فنقول : انه ليس بجوهر ولاعرض ولا مركب ولا مؤلف ولا في الجهة، ولا شك أن حقيقته المخصوصة مغايرة لهذا الأسلوب، وتلك الحقيقة المخصوصة لا سبيل للعقل الى معرفتها فيصير العقل كما لو انه المدهوش المتحير في هذا الموقف، فلهذا السبب نهى النبي (ص) عن التفكير في الله، وأمر بالتفكير في المخلوقات، فلهذه الدقيقة أمر الله في هذه الآيات بذكره ولما ذكر الفكر لم يأمر بالتفكير فيه، بل أمر بالفكر في مخلوقاته"

فتحصيل الطائل العملي والعلمي كان المنطلق الذي بنى عليه الرازي رؤيته اللامنطقية التي سادت العقلية الاسلامية في عصور انحطاطها، والتي ظللتها أو حيدتها عن جادة الواقع الحي، وما يتطلبه من مغالبة معرفية وتسلح عقلاني بناء، جعل الرازي ينفذ في العديد من استخلاصاته التأويلية الى الدعوة الى ترشيد الجهد العقلي، وصرفه في المجدي من المسائل التي يكون أثرها ملموسا وعمليا.. لقد رأيناه يستخلص من حديثه عن مسألة تحديد القبلة من قبل المغترب، وجوب تعلم علم الهندسة لكونه السبيل العلمي الهادي الى تحديد هذا الشرط التعبدي.. يقول : "*قد عرفت أن الغائب عن القبلة لاسبيل له الى تحصيل اليقين بجهة القبلة إلا بالدلائل الهندسية، وما لاسبيل الى أداء الواجب إلا به فهو واجب، فيلزم من هذا أن يكون تعلم الدلائل الهندسية فرض عين على كل واحد، إلا أن الفقهاء قالوا إن تعلمها غير واجب، بل ربما قالوا إن تعلمها مكروه أو محرج، ولا أدري ما عذرهم في هذا؟*"

إن السياق ليكشف لنا عن النظرة العقلية والتربوية المتميزة التي كان الرازي يواجه بها الأمور في عصره.، نظرة كانت تبدو شاذة في بعض تطلعاتها قياسا الى

ما كان يحيط بها من فكر جمودي مستكين.. وإنه ليتسنى لنا بيسير أن نستنتج من مثل هذا الموقف الذي يتخذه بشأن الزامية تعلم الهندسة، شرطا من شروط تأدية الواجب التعبدي، أن الرازي يقول بإلزامية كافة العلوم الدنيوية، فضلا عن الأخروية، حفظا للبيضة وللعقيدة.. لقد طفق في مواقف عديدة من التفسير يؤكد حتمية دعم الواجبات الدينية بشروطها المادية التي تضمن لها السيرورة وتصونها من طوارق العطلة، فما أكثر ما كانت الواجبات الشرعية تتعطل في تلك العصور مثل شعيرة الحج، بسبب انعدام ظروف الأمن وفقدان الآلة الحامية. يقول : "ثبت بالعقل أن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب".

مصادر البحث ومراجعه.

1 – القرآن العظيم.

2 – الفخر الرازي، التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب. دار احياء التراث العربي بيروت. ط3 ب.ت.

المراجع

3 – ابن كثير. التفسير دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.ط6 19843.

4 – الطبري تفسير الطبري المعروف بجامع البيان عن تؤيل آي القرآن تحقيق محمود محد شاكر دار المعارف ب. ت.

5 – الزمخشري الكشاف الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ب.ت.

6 – حسن حنفي، في فكرنا المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت ط1981 1.

7 – محمد عابد الجابري بنية العقل العربي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط.1986 1.

8 – منيع الحليم محمود، مناهج المفسرين دار الكتاب المصري ط.1. 1978.

9 – عبدالمجيد عبدالسلام المحتسب. اتجاهات التفسير في العصر الراهن منشورات مكتبة النهضة الاسلامية عمان ط.3 .1982.

10 – كالك بن نبي. الظاهرة القرآنية ترجمة عبدالصبور شاهين. دار الفكر 1981.

11 – الصبحي الصالح. مباحث في علوم القرآن دار العلم للملايين ط.10 .197.

الإحـــالات

1 – يقول بعض الباحثين : النص يعيش بحياة المجتمع أي أن المجتمع يعطيه تأويله الحاضر وفق الزمان والمكان، وإذا استثنينا عنصر التفاعل الاجتماعي في فهم النص، فإننا نكون قد قتلنا عامل الزمن في النص، وذلك جزء من أزمتنا المعاصرة.

أنظر عبدالرحمان عزي التفاعلات الرمزية.. حوليات جامعة الجزائر العدد. 8.1994.

2 – الرازي التفسير الكبير ج.7.8.

3 – م.س. ج.4

4 – م.س. ج1.

5 – م.س. ج4

6 – م.س. ج2

7 – م.س. ج.5

8 – م.س. ج9

9 – م.س. ج7

10 – م.س. ج7

11 – م.س. ج9

12 – م.س. ج9

13 – م.س. ج4

14 – نفسه.

15 – نفسه.

قرر هذا في مواطن كثيرة منها مثلا عند تعرضه لبيان سر تحول النبي (ص) بالقبلة الى مكة. انظر ج4. ص94 وكذلك فعل عند حديثة عن معنى قوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس.. اذ صرف معنى الخيرية فيها مصرفا احتماليا انظر ج.7.8. ص177.

16 – م.ص. ج9.

17 – م.ص. ج4.

18 – م.س. ج9. عرض هذا التقرير لتفسير قوله تعالى : الذين يذكرون الله قياما وقعودا..

19 – م.س. ج4.